قراءة الجابري التجديدية للفكر والنص الديني

أ/ طرشي

جامعة

الزهرة

معسكر

Abstract :

Cette contribution a pour objectif l'analyse de la problématique relative à la pensée et au texte religieux chez *Muhammad Abid- Al- Jabiri* sur lesquels nous nous sommes basés, en particulier sur une lecture approfondie de son ouvrage « *Introduction au Coran* », tome 1. Notre préoccupation était : « Est-ce que cette lecture nous permettra d'avoir une base pour un début d'une véritable pensée philosophique dans le domaine de la pensée arabe ou elle est seulement une consommation et une tradition ?

Au terme de cette lecture, nous avons pu tirer les conclusions suivantes :

- l'utilisation par l'auteur du principe que « le Coran s'explique par lui-même » est équivalent à l'annulation des interprétations irrationnelles.
- L'auteur a prouvé dans son ouvrage l'unité du texte coranique à travers sa manière du traitement de ce dernier, et cela suivant l'ordre et les causes de descente.
- Selon l'auteur, le texte Coranique et les sujets de la biographie du Prophète sont ouverts pour l'investigation intellectuelle.
- Le Coran n'a pas besoin de miracles extérieurs pour confirmer sa véracité, tels que l'analphabétisme du Prophète.

مقدمة:

إن الحديث عن إسهامات الدكتور محمد عابد الجابري في مجال الدراسات الفلسفية يقودنا وبالضرورة لا محالة إلى الحديث عن جملة مؤلفاته والتي أثرت الفكر الفلسفي. بداية من عمله كمعلم ابتدائي، ثم كأستاذ للفلسفة بكلية الآداب بالرباط؛ حيث تمخض عن هذه المراحل عدة مؤلفات تعددت بتعدد ميادين اهتمامه ودراساته من فلسفة المعرفة، والابستمولوجيا والتاريخ. وقد انتقينا أحد أهم مؤلفاته باعتباره يحوي هذه المباحث الفلسفية؛ والمقصود مؤلفه: **مدخل إلى القرآن الكريم** الجزء الأول، والذي يحوي ثلاثة أقسام هي: الأول بعنوان قراءات في محيط القرآن الكريم. أما القسم الثاني فبعنوان القرآن مسار الكون والتكوين. والقسم الثالث بعنوان القصص في القرآن الكريم. وقد تم اختيار هذا المؤلف للتحليل والتقييم لسببين الأول يتمثل فيما

نجده من ميل إلى البحث في الفكر العربي المعاصر، وبالخصوص ما يتعلق بتأويلات النصوص الدينية، ولمعرفة مدى حجم الاستقلال الفلسفي فيما يخص الفكر العربي. أما السبب الثاني فيعود إلى ما يثار حول فكرة التأويل للنص القرآني من نقاش وجدل بين من يحسبه مجرد استهلاك وتقليد للغرب، وبين من يرى أنه باب من أبواب ولوج العقلانية وتأسيس لبداية فكرية فلسفية فيما يخص الفكر العربي. وانطلاقاً من هذا فإن الإشكال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو: ما طبيعة القراءة التأويلية التي يقترحها محمد عابد الجابري؟ وكيف تتحدد معالمها؟ بمعنى آخر: هل بإمكان هذه القراءة التأسيس لبداية فكرية فلسفية حقيقية فيما يخص الفكر العربي أم هي مجرد استهلاك وتقليد؟ وهل سيكتفي بتوضيح قواعد ومبادئ قراءته التاريخية المقترحة لفهم النص القرآني بكامله، أو على الأقل لنماذج منه؟

العرض:

للإجابة عن هذه التساؤلات يمكن أن نستعين بكتابه **مدخل إلى القرآن الكريم**، كما يمكننا الاستعانة بمؤلفه "نحن والتراث" والذي أشار إليه الجابري في مقدمة كتابه باعتباره أحد المفاتيح الضرورية؛ لأن الدكتور محمد عابد الجابري قد بين فيه مبادئ قراءته الجديدة للتراث. ولقد كان وراء كتابة الجابري لكتابه **مدخل إلى القرآن الكريم** عدة أسباب قد صرح بها في مقدمة هذا الجزء الأول من بينها: أحداث 11 سبتمبر 2001، والتي تلتها عدة تغييرات شملت العديد من المستويات كالسياسة، والاقتصاد وغيرها. أما فيما يخص المفاهيم المفتاحية بالنسبة للموضوع فمن بينها: **التأويل Herméneutique** المشتق من الكلمة اليونانية **Herméneutike** والتي تعني رسول الآلهة إلى البشر¹. وهو بهذا المعنى وسيط يفسر ويشرح المرمز ويفك المبهم، وقد كان التأويل في القديم يقتصر على تأويل النصوص الدينية ليتسع ويشمل فيما بعد العقل الإنساني. أما لغويًا: "فالتأويل من الأول وتعني الرجوع وأول الكلام دبره، وقدره². أما فلسفيًا: "فالتأويل في نظر هيدغر ليس سوى جزء من الفهم للذات وللوجود، ولا يتم إلا إذا وضع المؤول نفسه في الإطار الدلالي أي وضع حدود للتأويل"³.

المفهوم الآخر هو العقل "Raison" المشتق من الكلمة اليونانية **Ratio** والتي تعني الملكة فقط⁴، أما لغةً: "فهو الحجر والنهي ضد الحمق ويقال عقلت البعير إذ جمعت قوائمه والعاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها"⁵. أما فلسفيًا: "فهو ملكة الفهم وملكة إدراك العلاقات الذهنية"⁶. ولتحديد طبيعة العلاقة بين كتابي الجابري "مدخل إلى القرآن الكريم" و"نحن والتراث" كان لزاماً الوقوف على خلاصات هذا الأخير الذي يعد بمثابة المدخل إلى القرآن الكريم.

1 - نحن والتراث:

1 Dawzat- Albert, **Larousse et y magique et historique**, édition française, 1971.p370

2 ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، ج 2، دار الصادر، لبنان، دس، ط 1، ص 187.

3 لالاند أندريه، **موسوعة لالاند الفلسفية**، ج 2، دار الصادر، لبنان، دس، ط 1، ص 1102.

4 Larousse, **Dictionnaire Encyclopédique**, édition française, 1981,p1021

5 ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، ج 2، ص 1159.

6 دريه جوليا، **قاموس الفلسفة**، تر: فرنسوا أيوب وآخرون، دار لاروس، باريس، ط 1، 1992، ص 1159.

صدر هذا المؤلف عام 1980 ويحتل مكانة مميزة بين كتب الجابري وذلك لاعتبارات منها: - هو بمثابة مدخل لمشروع الجابري النقدي كما أنه يوضح قواعد وأسس قراءة الجابري للتراث العربي الإسلامي، وذلك بداية بانتقاده للقراءات السلفية "والتي تفتقد من الناحية المنهجية للموضوعية، ومن ناحية الرؤية تعاني كلها من غياب النظرة التاريخية، ومن الناحية الإبستمولوجية فهي جميعها مؤسسة على طريقة واحدة في التفكير تقوم على ما سماه العرب القدامى قياس الغائب على الشاهد"¹.

وقد أعطى الجابري بديلاً يتجاوز سلبيات هذه القراءات السلفية، وذلك بناء على رؤيا جديدة، وقراءة جديدة، ومنهج؛ بحيث تجعل الخطاب التراثي منسجماً مع محيطه ومعاصراً لنفسه على المستوى المعرفي، والإشكالي والمضمون الأيديولوجي، ومعاصراً لنا على مستوى الفهم والمعقولة؛ مما يزيل الضبابية التي تسعى القراءات الأخرى لتكريسها. كما تشكل حركة الفكر الناقد بها، وتعيق أي دعوة فكرية تسعى للتغيير، ويتم تحقيق هذا المطلب الفكري بناء على مدى فاعلية القارئ للنص التراثي. كما أن القراءة التي يقترحها الجابري تقوم على خطوتين أساسيتين وهما: "جعل المقروء معاصراً لنفسه ومعناه فصله عنا، وجعله معاصراً لنا ومعناه وصله بنا...قراءتنا تعتمد إذن الفصل والوصل كخطوتين منهجيتين رئيسيتين"². وبهذا فإن القراءة التي اقترحها الجابري قراءة تاريخية تسعى إلى إحداث قطيعة مع الفهم التراثي للتراث، وذلك بتحرير فهم التراث من الإيديولوجيات التي جعلت فهمنا غير واضح، ويتسم بالضبابية فهي تحجب الرؤية.

ولتوضيح الرؤية علينا القيام بزحزة هذه الأغطية والسلط التي تم تغليف التراث بها، لينتقل بعدها إلى اللحظة الثانية وهي وصل القارئ بالمقروء؛ بحيث عن طريق الحدس الرياضي يتم جعل الذات القارئة تحايث المقروء، وتلامس إشكالاته. ومقصود الجابري بالحدس ليس الحدس الصوفي أو الفينومولوجي أو غيرها من الحدوس الأخرى؛ وإنما المقصود هو حدس قريب من الحدس الرياضي. أما فيما يخص القراءة الجابرية المتعلقة بالخطاب القرآني فترتسم ملامحها بوضوح من خلال المنهجية التي قدمها الجابري في كتابه: التراث والحداثة، ومدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول.

2 - التراث والحداثة:

قدم الجابري في هذا الكتاب مثالا تطبيقيا يوضح منهجيته المتبعة وذلك تبعا لقوله تعالى: "للذكر مثل حظ الأنثيين" سورة النساء الآية 176. ولتأويل هذه الآية طبق الجابري خطوات منهجه التي اقترحها من خلال كتابه نحن والتراث ويقول في هذا الصدد: "لكي نجعله معاصراً علينا أن نقرأه في محيطه الاجتماعي الخاص، أعني المجتمع الذي نزل فيه الإسلام، كان ذا بنية قبلية، والملكية كانت مشاعة فالأصل القبيلة تملك وليس الفرد، وعلاقة القبائل صراعية، والملاحظة الثانية تحريم الزواج بالأقارب (المحارم) وتفضيل الأبعاد"³.

1 إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2007، ص 290.

2 الجابري محمد عابد، نحن والتراث (قراءة معاصرة في تراثنا العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1993، ص 12.

3 الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 2، 1999، ص 54.

ومن خلال هذه الملاحظات يتضح جليا بأن الزواج كان وسيلة للتحالف مع قبيلة أخرى وفي هذه الحالة ما ترثه المرأة سيؤول إلى أهل زوجها سواء كان مال أو مرعى، وهذا ما أدى إلى وجود نزاعات؛ ولهذا السبب كان المجتمع القبلي لا يورث البنات نفس نصيب الذكر والبعض الآخر يجرمها من الميراث بالإضافة إلى تعدد الزوجات وهذا الأمر يخل بالنظام الاقتصادي، وتقاديا لهذا أقر الإسلام بالحل الوسط بين المرحلتين المتمثلتين في المرحلة الجاهلية، ومرحلة الدولة الإسلامية ليعطيها نصف ما للذكر، بالإضافة إلى إلزام زوجها بنفقتها وبناء على هذا التحليل يتضح أن الحكم الشرعي الإسلامي يستجيب لمتطلبات المجتمع المدني.

ويضيف الجابري قائلا: "ونتيجة لطبيعة جبال الأطلس بالمغرب حيث الأرض مشاعة بين القبائل وسبب النزاعات التوريث للبنات أفتى بعض الفقهاء بعدم توريثها، وهي مخالفة لمنطوق الحكم الشرعي، ولكن فيها مصلحة هي هنا درء للفتنة"¹. من الواضح أن الجابري قام بدراسة تعتمد على الفهم العميق والواعي لدلالات محيط النص القرآني والظروف المحيطة به. وهذا ما يؤكد بأن العقل العربي قد تشكل وفقا للواقع المفروض عليه ليمر بعدة مراحل تمثل بناءات معرفية، والتأويل هو إحدى هذه البناءات، ومن خلاله يتم الانفتاح لتوظيف معطيات التراث في معارك الحاضر الفكرية على وجه الخصوص. وبهذا فالجابري يؤكد على ضرورة قراءة القرآن من جديد بناء على قراءة نقدية منفتحة وبعيدة كل البعد عن القراءات المؤدلجة، وهذه الخطوة لا بد منها من أجل تحقيق فهم جوهري للقرآن باعتباره نصا تأسيسيا، وقد اعتمد على مجموعة من المفاهيم في قراءته للنص الديني (القرآن) والتي اعتبرها بمثابة آليات لفتح الآفاق التأويلية، وتجاوز الفهم الدوغمائي للتراث، وفتح المجال لإنعاش قراءة النص الديني. بالإضافة إلى التعاطي الواعي مع التاريخ ومن بين هذه المفاهيم الوصل والفصل... الخ وهي آليات أساسية في الدراسة التأويلية لدى الجابري.

ومن خلال ما سبق يتضح أن الجابري يعتمد على منهج التحليل البنيوي بناء على مبدأ القراءة في المحيط الاجتماعي الخاص بنزول القرآن الكريم قصد جعله معاصرا لنفسه، والمحيط الاجتماعي المقصود به هو المجتمع القبلي وتوازناته حيث العلاقة هي علاقة نزاعات حول المراعي، ويضيف الجابري فيما بين سطور تحليله بأن المصلحة العامة هي الأساس الذي يجب الاحتكام إليه فيما يخص إتباع النص أو تجاوزه وانطلاقا من هذا يبدينا لنا حسب الجابري أن نفهم النص وفقا للطريقة التي قدمها، حيث يصبح معاصرا لنا في إطار الفهم، أما على مستوى إطار الفعل فهذا يقتضي المزيد من البحث في عدة زوايا متعددة. وبهذا نستنتج بأن الجابري يسعى إلى بعث روح النص من جديد والمقصود هو الروح الانفتاحية التي تقبل الأخذ والعطاء مع عصرها مما يفتح الباب أمام مشروعية الاجتهاد وفق اللحظة التاريخية المتجددة. ولذا سيكون جعل النص معاصرا لنفسه أمرا علميا وعلى مستوى الأفهام، أما جعل النص معاصرا لنا على مستوى الفعل فهو ما دعى الجابري إلى التوقف. وفي هذا الصدد يقول عبد الهادي: "ولعل توقف محمد عابد الجابري في قوله إن مدى استجابة النص لمعطيات المجتمع الراهن هو أمر ليس من اختصاصي هو إدراكه للفرق، وإن كان قد أشار إلى أن الاجتهاد ممكن لمن يريد الاجتهاد، أما حدودي كعالم فيجب أن تتوقف هنا"².

3 - مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول:

1 الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، ص 55.

كما ذكرنا سابقا هو مقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول من الكتاب بعنوان قراءات في محيط القرآن الكريم، وقد استهله بالحديث عن أصل الديانات السماوية الثلاثة وتطرق فيها إلى قضية النبي الأمي، وإلى إدعاءات النصارى، وعلاقات الدعوة المحمدية، ويركز فيما بعد على حدث النبوة، والوحي، وينتقل إلى دراسة حقيقة النبوة وآراء التيارات الفكرية حولها؛ وقد تم طرح هذه الأفكار ارتباطا مع السيرة النبوية التي أصبحت مهمشة في حقول الدراسات الفلسفية بناء على عدة معطيات: من بينها التراجع الملموس على المستوى الحضاري الإسلامي في مختلف الميادين.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد تم تخصيصه لما سماه الجابري القرآن مسار الكون والتكوين، وتناول فيه تتبع المسار التكويني للقرآن الكريم اعتمادا على القرآن في حد ذاته بداية من النزول إلى غاية جمعه في المصحف، كما اعتمد على أسباب النزول في عملية ترتيب نزوله وهذا ما أعطى لدراسته الفلسفية الروح التاريخية؛ والتي جعلت من دراسة الجابري للمسار التكويني للقرآن معاصرا لنفسه ولنا في نفس الوقت.

أما القسم الثالث فكان بعنوان القصص في القرآن الكريم، وتم الاستشهاد بقصص وسير الأقسام والرسول من أجل أخذ العبر؛ لأن من لم يفهم ماضيه غير قادر على تغييره ولا الماضي إلى مستقبله الفكري؛ فهو في قراءته للموضوع المطروق من قبل القدامى تحت عنوان "علوم القرآن" استطاع الإفلات من شرنقتهم الفكرية ليقدم لنا وجهة نظره والتي تتلخص في ميزة قراءة الجابري للنص القرآني، التي أتاحت الطريق لظهور قواعد منهجية تسعى إلى بناء قراءة جابرية تمحور فهما واضحا للخطاب القرآني. كما أن قراءة الجابري تسعى إلى تحطيم كل ما يحجب عن الفهم الواضح خصوصا ما تعلق بحدث الوحي المحمدي، والذي نجده مرتبط بتأويلات إيديولوجية مشبعة بالروح الفلسفية، والسياسية، والتي كان لها إسهام كبير في حجب العقل القرآني إلى حد تغييبه، وهذا ما يوحي لنا أن الإسلام في نظر الجابري هو دين عقل. ومن بين جملة الأدوات التي اعتمد عليها في دراسته: "نسقية التركيب، والأسلوبية المعجمية لنظام اللغة، وسياقية تتعلق بفهم عميق وواع بالظروف المحيطة بدلالات النص والمسماة بفقه الواقع، أوفقه المرحلة وهذا ما سماه (ببنية العقل)؛ إذ تشكل العقل العربي تبعا لما أملى عليه الواقع، أو المرحلة والقصد أن يأخذ من النص فكانت المرحلة البيانية (التفسيرية)، ثم العرفانية (التأويلية)، ثم البرهانية (المنطقية)، كما أن استنباط الأحكام من النص يخضع بالأساس إلى ثقافة المستنبط ودرأيته بأحوال التنزيل"¹.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أدوات منهجية يركز على خطوتين أساسيتين: الوصل والفصل، وقد طبقهما بالأخص على القرآن باعتباره كتاب سماوي، وأيضا بالنظر للعلاقة التي تربطه بباقي الكتب الأخرى (الإنجيل والتوراة)، والتي اتضحت بعدما تراكم القرآن. كما أن الجابري يصرح بأن تعريفه للقرآن كان بدافع تحريره مما تم حشوه ضمن الخطابات التي تسعى إلى فهم النص القرآني كوجهات نظر المتصوفة، والفلسفة الإستشراقية، وحتى الغنوصية... الخ.

2 عبد الرحمن بد الهادي، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، مؤسسة الانتشار العربي، مصر، ط 1، 1998، ص 231.

1 منقور عبد الجليل، النص والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2010، ص 32.

وانطلاقاً من هنا اعتمد الجابري مبدأً أو قاعدة القرآن يفسر بعضه بعضاً من أجل التخلص أو الانفلات من سلطة وقداسة التأويلات التي يقدمها رجل الدين، أو أي هيئة تمثله، وأيضاً للتحرر من ثقل الموروث الثقافي الذي تحشى به النصوص كالإسرائيليات وغيرها. إذن دراسته "فيها بعض الآليات الجديدة التي يقدمها لفهم النص القرآني، وذلك وفقاً لما تقدمه الفلسفة من مناهج معاصرة يتجاهلها علماء الدين في تعاملهم مع القرآن وتظهر عند الفلاسفة المعاصرين الباحثين في النص القرآني كالجابري"¹. وبهذا تكون الفلسفة ممارسة متميزة عن الدين؛ ودت في تعاملها مع القرآن كونها أوسع وأشمل في طرح قضاياها بالإضافة إلى نظرتها العقلانية والعميقة فيما يخص النصوص، وهذا ما يوضحه الجابري من خلال قوله "التأويل الذي هو من الناحية الإبيستيمولوجية عملية واحدة، استثمرت للألفاظ. وبهذا فالتأويل البياني يستخرج الكنز كله من اللفظ والتأويل العرفاني يأتي بالمعاني جاهزة ويضمنها في اللفظ"².

وبهذا يكون الجابري قد انتصر للتأويل البياني الكلامي على حساب التأويل العرفاني؛ واختياره لأفضلية أحدهما على الآخر راجعة إلى وظيفة كل منهما وإلى الدور الذي يلعبه كل منهما في خضم العملية التأويلية. أما الخطوة الثانية والتي ركز عليها الجابري والتي تسعى إلى تقديم قراءة للتراث، وفي نفس الوقت تفسح المجال لعملية الانفتاح هي التجديد من الداخل، وانطلاقاً من هذا المفهوم وسياقه المعرفي يرفض الحدأة المفروضة من الخارج ويقترح بديلاً هو الحدأة المستوحاة من الداخل أي التجديد الداخلي، ولهذا يقترح العودة للتراث والبحث في خضمه من أجل العثور على آليات، ومفاهيم موجودة داخل هذا التراث تحوي بذور التجديد وفي مختلف المواضيع، ويحدث هذا بعد إخضاع التراث للنقد والتشريح، ليتم الإفصاح عن اللامنتوق والمحجوب، وبهذا يفتح المجال أمام إمكانية إعادة قراءة التراث قراءة جديدة تخضع للموضوعية والتاريخية والعقلانية وتستحث فيه روح العصر، والماضي في نفس الوقت ليحدث بذلك تزواج فني يعبر عن حقائق إبداعية راقية تعبر عن ذاتنا العربية. أما فيما يخص عنصر الاتصال والانفصال؛ فاتصالنا بتراثنا الماضي يكون على مستوى الهوية فنحن بالضرورة بحاجة لهويتنا المرتبطة بتاريخنا الماضي، والانفصال عن التراث على صعيد الشمولية والعالمية وفي هذا الصدد يقول كمال عبد اللطيف: "المسافة في نصوص الجابري بين البحث والتأويل مسافة إشكالية لأنها أولاً عملية ثنائية تركيب داخل التركيب البحثي ومرمى البحث بالضبط هو التفكير في كيفية توطين الحدأة حيث لم يعد بإمكان المشتقات التراثية في ضمنيها، وتكلسها، ونصيتها أن تواجه متطلبات الأزمنة هنا ينتقل الباحث من مستوى التحليل إلى مستوى التأويل؛ حيث يفكر في كيفية امتلاك مقدمات الحدأة من داخل عملية إعادة تملك التراث يفكر في الانفصال والاتصال"³.

من خلال ما سبق يتضح أن الجابري يسعى إلى توظيف معطيات التراث لحل مشاكل الحاضر وتحدياته؛ وبالتالي الأطروحة الجابرية مخصصة للمجال السياسي، والتاريخي، ومرتبطة أيضاً بالجانب المعرفي و الأيديولوجي وهذه الفكرة تتعلق بعملية التجديد من داخل التراث، وهي عبارة عن إستراتيجية تسعى إلى تقديم قراءة لموروثنا الثقافي وبهذا فالجابري

1 مؤلف جماعي، حوار الفلسفة والعلم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010، ص 161.

2 بلقرين عبد الإله، الإسلام والحدأة والاجتماع السياسي (حوارات فكرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2010، ص 13.

3 عبد اللطيف كمال، الحدأة والتاريخ، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999، ص 82.

ليس من دعاة القطيعة مع التراث؛ وإنما يسعى إلى إعادة نسج نوع من التواصل بيننا وبينه، وكخطوة أولية علينا إعادة تنظيم أنفسنا وحتى علاقاتنا بصورة حدائثة لتضمن لنا وجود حيوي إبداعي في الفضاء الفكري، وكذلك إن تراثنا بحاجة إلى أن نحتويه لنكتشف ما هو بحاجة إلى الترميم، وما هو بحاجة إلى النقد والتجاوز. أما فيما يخص الظاهرة القرآنية بالأخص فقد وضع الجابري إستراتيجية مطبقة في دراسته للنص القرآني وبنائها على مبدئين أساسيين: الأول جعل هذا النص القرآني معاصرا لنا.

أما المبدأ الثاني فيتمثل في السعي إلى تحرير النص القرآني من ما قد رسمه له الموروث، والمؤسسات الدينية، وحتى تراث ما قبل الإسلام. وقد وجد الجابري ضالته باعتماده على القاعدة التي تقول: القرآن يفسر بعضه بعضا ويعتبرها المدخل لجعل القرآن معاصرا لنا ومعاصرا لنفسه. ويقول في هذا الجانب "إن الذين اختصوا في هذا النوع التكويني مع النص القرآني هم علماء باحثون ظهوروا في مرحلة متأخرة نسبيا أطلقوا على نتائج أبحاثهم أسماء... اسم جامع هو علوم القرآن، يقصدون بذلك أنواع المعارف التي تدور حول مختلف جوانب النص القرآني"¹. إلا أن الجابري لم يصرح من هم العلماء المقصودين؛ لأن من بين هؤلاء العلماء فقيه اعتبر من طرف السلفيين مرجعا لهم، وهو ابن تيمية؛ وقد استعمل ابن تيمية قاعدة القرآن يفسر بعضه بعضا واعتبرها من أحسن طرق التفسير.

أما الجابري فقد استخدم هذه القاعدة بغرض إبعاد التفسيرات القرآنية التي تم فيها استخدام الموروث القديم كالإسرائيليات، والعرفان، وحتى الغنوصية، وغيرها من الدراسات التي وظفت القرآن لأهداف إيديولوجية، وسياسية، أو طائفية. ويركز الجابري على الطائفية باعتبارها ردود أفعال يغيب فيها العقل وتحل مكانه العاطفة؛ مما يؤدي إلى إختلالات خطيرة على مستوى الفكر العربي الإسلامي، ولهذا سعى الجابري إلى التعريف بالقرآن من خلال قراءته قراءة تاريخية توضح أن هذا الدين مؤسس على مفاهيم عقلانية. يقول إبراهيم أعراب: "والمفارقة أن هذه العقلانية لا يمكن تأسيسها وتحقيقها لدى الجابري إلا بالاعتماد على مفاهيم السلفيين الأكثر معاداة للعقلانية والعقلانيين وهو أحمد بن تيمية، مما يعني أن الجابري... وجد ضالته لدى ابن تيمية ومفكري الإسلام السلفي"²، ومن الواضح أن الجابري قد استخدم قاعدة "تفسير القرآن بالقرآن" كأداة القصد منها التجديد من الداخل، كما أنه يحاول استلهاً المنهج الرشدي العقلاني الذي يؤكد على أنه ليس هناك تعارض بين المنقول والمعقول، وفي هذا الصدد يقول أبو الوليد بن رشد في كتابه فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال: "والنظر في الحكمة يكون لمن هو أهل لها، والفصل بينهما كمن يمنع العطشان من شرب الماء البارد العذب وتركه يموت لأن قوما شرقوا به فماتوا"³.

وبهذا يحاول الجابري العودة إلى الأصل الأول والذي هو القرآن بالنسبة إلى الإسلام. مما سيسمح للقرآن الكريم بالتعبير عن نفسه انطلاقاً من قاعدة "القرآن يفسر بعضه بعضا". ويمكن أن نستنتج مما سبق أن الجابري سعى لتطبيق هذه القاعدة "تفسير القرآن بالقرآن" من أجل تسهيل عملية التعامل مع القرآن مباشرة بعيداً عن الوسائط، والسلط، ولكن يجب الإشارة إلى

1 الجابري محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، ج 1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2006، ص 20.

2 إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحدائثة، ص 297.

3 ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، دار المشرق، بيروت، ط 2، 1968، ص 49.

أن هذه العملية ليست بالأمر الهين؛ فهناك مفاهيم، وقواعد أصولية، وأسباب نزول، وناسخ ومنسوخ قد ترسخت في مباحث علوم القرآن. فما السبيل الذي اتخذته الجابري للانفلات من هذه المفاهيم التراثية؟. من الواضح في كتاب الجابري مدخل القرآن الكريم الجزء الأول، أنه لم يتخلى عن استعمال مفاهيم تراثية، وحتى تفاسير تعتمد على المأثور خلال قراءته؛ لكن هذا لا يفي ما بذله الجابري لتحقيق هذا المطلب؛ بحيث وضع جملة من المنطلقات تساهم في تحقيق قراءته التاريخية، والعقلانية للقرآن الكريم وهذه المنطلقات هي:

"1 - تفسير القرآن بالقرآن...2 - التعامل معه بحسب ترتيب النزول...3 - إقامة تطابق بين نزول القرآن والسيرة النبوية...4 - عدم فصل الدعوة المحمدية عن السياسة والتاريخ...5 - عدم الفصل في القرآن بين الدين والدنيا...6 - اعتبار حياة الرسول وتعاليم القرآن موضوع مفتوح لإعمال العقل...7 - اعتبار القرآن وحده هو المعجزة ونفي الفوارق"¹.

ومن خلال هذا يتضح أن الجابري يسعى إلى جعل القرآن معاصر لنفسه بناء على هذه الخطوات وبالخصوص إقامة تطابق بين القرآن والسيرة واتباع ترتيب النزول. وبالتالي فإن قراءة الجابري كانت تهدف لإيضاح العديد من النقاط بداية من التأكيد على أن الدعوة المحمدية تقوم على العقلانية، وتفتح المجال لإعمال العقل وحتى علاقة النبي بالقرآن كانت في حدود المعقول. وفيما يخص القصص القرآني فهو وسيلة إقناع تحتكم إلى العقل، كما يؤكد الجابري على أن القرآن ليس بحاجة إلى معجزات تؤيد صدقه، ويشيد الجابري بابن رشد، وبمنهجه في التفكير، ويبرز أهميته فيما يخص قراءته العقلانية للقرآن، وهذا يؤكد بأن هناك اتفاق بين الجابري وابن رشد في قراءتهما العقلانية مع الاختلاف في بعض الضوابط العامة. وبإمكاننا اعتبار الدراسة الجابرية استكمال للقراءة الرشدية؛ بحيث يمكن أن توصف بأنها استعادة للعقلانية الرشدية، ويؤكد الجابري على أن مشروع بن رشد يقوم على فكرة أساسية ويوضحها بقوله: "لقد درس بن رشد فلسفة أرسطو وهي خالية تماما من هاجس التوفيق بين الدين والفلسفة، كما درس العلوم العربية.... ليجد أنه لا علاقة إطلاقا بين الفلسفة (أرسطو) والدين (الإسلام)، لأن الأمر يتعلق في نظره ببنائين مستقلين لكل منهما أصوله ومبادئه، وأن امتحان صدق أية قضية في أي منهما يجب أن يكون داخله، وليس خارجه"².

من الواضح أن بن رشد والجابري يتوافقان في نقطة محورية لمشروعيهما وهي العقلانية، ويبقى الاختلاف على المستوى التاريخي؛ فالجابري حاول استعادة العقلانية الرشدية ويوظفها في مشروعه الفلسفي، كما أن النزعة الرشدية لدى الجابري تتجلى بوضوح فيما يتعلق بمسار الجابري الفكري وخصوصا من خلال أعماله التي سعى فيها إلى التحقيق فيما يخص نصوص ابن رشد لتكون بهذا العقلانية الرشدية بمثابة الأرضية المساعدة للتأصيل فيما يتعلق بمشروع الجابري الفكري والمرتبطة بالتراث وبالأخص الظاهرة القرآنية.

وإجمالا فإن هناك بعض القراء لكتابه مدخل إلى القرآن الكريم الجزء الأول يرون بأن الجابري لم يبق وفيها لمنهجية كتابه "نحن والتراث"؛ لأنه قد صرح في كتابه هذا أنه يسعى إلى تطبيق الوصل والفصل كخطوتين أساسيتين في منهجه غير أنه اكتفى بمداهنة البنى الفكرية التقليدية عوض ممارسة النقد البناء ليبقى حبيس اللحظة الأولى دون أن يخطوا أي خطوة نحو

1 إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، ص 299.

2 الجابري محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، ج 1، ص 141.

الفصل الذي يمثل الخطوة الثانية ويؤكد ذلك. ومن الملاحظ أيضا أن القراءة الجابرية قد استبعدت جملة من الإنجازات الفكرية كالصوفية والإشراق رغم أن التأويل يقضي بالتححرر من النظرة الضيقة خصوصا وأن الجابري يؤسس لمشروع فكري فلسفي، كما أن طه عبد الرحمن يرى بأن الآليات المنقولة التي توسل بها الجابري لا تشكل نسقا متماسكا، وهذه الآليات: النبوية، والتكوينية، والعقلانية والجدلية، وهي في نظره غير مناسبة من جهة، وأيضا أساء استعمالها، من جهة أخرى"¹.

والمقصود من هذا أن هذه الآليات تتبني على مبادئ ثلاثة تعارض المبادئ التراثية؛ وهذه المبادئ المعارضة هي مبدأ الموضوعية، ومبدأ العلمانية، ومبدأ النظر المتوحد. كما يؤكد طه عبد الرحمن أن الجابري لم يباشر قط نقد هذه المبادئ المنقولة. وهناك أيضا ردود أفعال إيجابية إزاء كتاب الجابري مدخل إلى القرآن الكريم من بينها ما تقدم به محمد الشيخ في قوله "القرآن كتاب تاريخي، ولذلك لا بد للتعامل معه، كما يقول الجابري من فكر تاريخي متبوع لتطور الثقافة العربية، لا سيما منها الجانب الكلامي والفقهية... وهذا فإن الطريق إلى معرفة القرآن هي التعامل معه على أساس ترتيب النزول لسوره من أول آية نزلت إلى آخر آية، وذلك عكس ما درج عليه المفسرون من التفسير بحسب ترتيب المصحف"².

ومن خلال هذا يتضح أن القراءة التي يقترحها الجابري ضرورية لكي يكون هناك تطابق بين نزول القرآن والسيرة النبوية مما سوف يحدث تناسق بين نزول القرآن وحياة الرسول، وبهذا فهو يحاول كسر المسلمات الإيمانية بالاعتماد على التشكيك بغية فتح المجال أمام الحريات الفكرية ليتم بذلك دعم فضاء العقلانية.

كما يؤكد جملة من الباحثين أن الموضع النقدي هو الأداة البارزة في أعمال الجابري؛ بحيث يرون أن الجابري "في القارة التراثية لا يندرج ضمن البحث التراثي التقليدي، إنه يشتغل في الجبهة التراثية ليعلن أولا أن المجال التراثي ذاكرة جماعية، ولا يحق لأحد التفرد باحتكارها"³. وبهذا يكون عمل الجابري النقدي بمثابة المكسب للمفكر المعاصر، كما أنه يمثل نقطة استلهاهم للعناصر المتضمنة ضمن المكون التراثي الذاتي. وإجمالاً يمكن رصد بعض الاستنتاجات اللافتة للاهتمام من بينها: أن دعوة الجابري إلى إعادة قراءة القرآن الكريم من خلال كتابه مدخل إلى القرآن الكريم لا تعني الانغلاق على بقية الدراسات بل فتح المجال أمام تعدد القراءات لإثراء الرصيد التراثي وذلك من خلال عودة العقل ليسير حياتنا من جديد ولمواجهة مشكلات الواقع التي يعانيتها المجتمع العربي الإسلامي اليوم، ولكي يعود هذا العقل يجب أن يتوفر للعقل الإسلامي مناخ حقيقي من الحرية، وأن نعي بأن القرآن الكريم يحوي معاني مطلقة وأفهام نسبية، ولكل عصر فهمه الخاص بناء على أرضيته المعرفية الخاصة، كما أن الجابري يدعو إلى قراءة حدائثية للنص القرآني تستغل أهم التحولات الجديدة على مستوى مناهج القراءة، وبمقتضى هذه المرجعية التي اكتسبها النص في فضاء الثقافة العربية الإسلامية والتي تم وصفها بأنها ثقافة نص، وبالرجوع إلى الأصول الأولى التي جسدها يتضح بأن أحسن

1 علي زهرة أحمد، العقل العربي بنية وبناء (دراسة نقدية لمشروع الجابري)، نور للطباعة والنشر، مصر، ط 1، 2007، ص 80.

2 الشيخ محمد، محمد عابد الجابري، مسارات مفكر عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2011، ص 32.

3 البرقاوي أحمد، التراث والنهضة (قراءة في أعمال محمد عابد الجابري)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2014، ص 24.

بديل هو في هذا النص المؤسس وهو القرآن . كما أنه يسعى من جهة أخرى إلى تحقيق إسهام فلسفي حقيقي يكون على شكل مقترحات وحلول للقضايا الإنسانية المطروحة في ضوء تطورات الحياة المعاصرة ومكتسبات المعرفة الإنسانية، والتحديات الجديدة في القرن العشرين كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والإسلاموفوبيا بناء على استثمار الفكر الفلسفي والعقلاني في قراءة القرآن الكريم. وبهذا يتم الإعلان بأن النص القرآني نص حي لأن الفهم المتعلق به لم يكتمل بل يعيد نقد الأفهام السابقة عليه، ما يجعل منه منتجا لنص أو نصوص مركزية والاشتغال عليها اعتمادا على التأويل.

المراجع:

1-المصادر:

- الجابري محمد عابد، نحن والتراث(قراءة معاصرة في تراثنا العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 6، 1993.
- الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 2، 1999.
- الجابري محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، ج 1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2006.
- الشيخ محمد، محمد عابد الجابري، مسارات مفكر عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2011.

2-المراجع:

- إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2007.
- عبد الرحمن بد الهادي، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، مؤسسة الانتشار العربي، مصر، ط 1، 1998.
- منقور عبد الجليل، النص والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2010.
- كتاب جماعي، حوار الفلسفة والعلم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010.
- بلقريز عبد الإله، الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي (حوارات فكرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2010.
- عبد اللطيف كمال، الحداثة والتاريخ، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999.
- إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة.
- ابن رشد، فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، دار المشرق، بيروت، ط 2، 1968.
- علي زهرة أحمد، العقل العربي بنية وبناء (دراسة نقدية لمشروع الجابري)، نور للطباعة والنشر، مصر، ط 1، 2007.
- البرقاوي أحمد، التراث والنهضة(قراءة في أعمال محمد عابد الجابري)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 2014.

3-الموسوعات والمعاجم:

-Dawzat- Albert, Larousse et ymagique et historique, édition française, 1971.

- ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج 2، دار الصادر، لبنان، دس، ط 1 .
- لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج 2، دار الصادر، لبنان، دس، ط 1.
- 4 - Larousse, Dictionnaire, Encyclopédique, édition française, 1981
- دريه جوليا، قاموس الفلسفة، تر: فرنسوا أيوب وآخرون، دار لاروس، باريس، ط 1، 1992.